المسار الثّقافي لاتفاق غزّة ـ أريحا وسبل المواجهة

عبد القادر صالح

كيف يمكن لاتفاق سياسي ضئيل يشمل مدينتين (غزّة ـ أريحا) لا تزيد مساحتهما عن ٣٧٠ كيلومتراً مربّعاً ولا تضمّان أكثر من ٨٠٠ ألف من السكّان أن يكون مهدّداً للثّقافة العربيّة الّتي تتلبّس أكثر من (١٥٠) مليون عربي ينتشرون على مساحة ١٢ مليون كيلومتر مربّع؟

بقدر ما يبدو السّؤال ساذجاً فإنّه يثير السّخريّة المرّة والشّعور بالتّفاهة. فالاتفاق الّذي وقّعه محمود عبّاس وشمعون بيريز ـ وللوهلة الأولى لدى النّظر في بنوده ـ يتناول مستقبل المجتمعات العربيّة، ويقرّر من طرف واحد إلغاء انتمائها إلى عالم عربي له سماته الواضحة وقضاياه المشتركة الّتي عاش من أجلها صراعات دمويّة ـ منذ انحسار الإمبراطوريّة العثمانيّة ـ مع قوى خارجيّة على الأغلب، ويفرض عليها أن تنتمي ـ منذ لحظة توقيع الاتفاق ـ غيابيّاً وبقوّة تكاد تبدو ميتافيزيقيّة ـ إلى ما يسمّى بالنّظام الشّرق أوسطي. فالاتفاق يُغيِّب أدنى إشارة إلى هويّة المنطقة الّتي يقتحمها بمشروع معدّ سلفاً ولا يذكر في أيّ بند من بنوده كلمة عربي. ويفرض على هذه المنطقة ـ الّتي يكتفي بتسميتها بالشّرق الأوسط ـ أن تدخل في تحالفات إقليميّة قائمة على أساس اقتصادي يعتمد نظاماً تكنولوجيّاً ـ معدّاً سلفاً ـ يملك الصهاينة مفاتيحه، وعلى الفلسطينيّين ـ الّذين يخرجهم الاتفاق من سياقهم الحضاري ـ أن يكونوا سعاة بريد ـ وفي أفضل الأحوال وسطاء ـ بين المركز في تل أبيب والأطراف في (الدّول المجاورة) و(العواصم الإقليميّة) في (الشّرق الأوسط الجديد).

ومن نافل القول إنّ نجاح اتفاق كهذا يتطلّب انقلاباً شاملاً في المفاهيم والأسس الثّقافيّة ومجموعة القيم التربويّة الّتي سادت العالم العربي حتّى الآن. فقد تشكّلت الثّقافة العربيّة الراهنة في مصهر علاقة ضدّيّة تناحريّة مع الحركة الصهيونيّة ومفاهيمها، وضمن آليّات (التحرّر ـ التبعيّة) و(التحقّق ـ الاستلاب) و(الحداثة ـ التحديث) تجاه الغرب.

ورغم الهزائم الّتي مُني بها العرب أمام الغرب، وهي نتيجة معارك خاضوها بادئين أو مفروضة عليهم بسبب العلاقة السّجاليّة بين ثقافتهم وثقافة الآخر ـ المسيطر، رغم هذا لم يرَ العرب مبرّراً للنكوص عن إزجاء السّجال قُدُماً لاطمئنانهم أنّ حظّهم في الانتصار يتوثّب مع اشتداد الصّراع وتقدّمه، وأنّ البديل هو الهزيمة النهائيّة والتّفتيت. إلّا أنّ هذا (العقد ـ الصّفقة) جاء خاتمة لفصل دامٍ استمرّ تسعة عقود من الزّمان، لا لينهي الصّراع الدّموي وإنّما ليعلن بدء فصل جديد من صراعات أشدّ دمويّة وظلماً من سابقاتها.

الاجتياح الصهيوني لفلسطين ومحاولات التّطبيع

حاول الصهاينة منذ بداية تنفيذ المشروع الصهيوني أن يحظوا بقبول المحيط العربي الإسلامي، وقدّم هرتزل للسلطان عبد الحميد سنة ١٨٩٦ عشرين مليون ليرة ثمناً لفلسطين. ولمّا باء بالفشل استعان بوساطة النّائب السّابق في البرلمان العثماني يوسف ضياء الخالدي، وهي وساطة فشلت بالطّبع[1]. ومنذ أن تنبّه الفلسطينيّون إلى الخطر الصهيوني قاوموه بضراوة، وكان للنّخبة السياسيّة والثّقافيّة دروها الأكبر في محاربة الصهيونيّة بدءاً بكتاب «يقظة الأمّة العربيّة» للبناني نجيب عازوري ثم روحي الخالدي ونجيب نصّار وعيسى العيسى. ولكن الصهاينة واصلوا محاولاتهم لإيجاد نواة فلسطينيّة وعربيّة تتقبّل وجودهم، وحاولوا التّرويج بألوان زاهية للمشروع الصهيوني، فلجأ نجيب الأصغر وهو يهودي استطاع بالحيلة أن يقدّم المشاريع للعرب حتّى يخدعهم ويصل إلى فلسطين دون أن يشير إلى الصهيونيّة من قريب أو بعيد، واحتاج الأمر إلى زمن حتّى تتضح حقيقة نشاطاته[2]. ثمّ كانت مراسلات الحسين ـ مكماهون الشهيرة؛ واستطاع الصهاينة إقناع الأمير فيصل ـ قبل أن يصبح ملكاً ـ بتوقيع الاتفاق الشهير مع وايزمن، وأن يتحدّث بلهجة تشي بالقبول بالهجرة اليهوديّة وذلك في مؤتمر السّلم المنعقد في باريس في شباط ١٩١٩. كان هذا أول قبول رسمي من طرف عربي بالوجود الصهيوني على أرض فلسطين. ولكن أوّل محاولات التّطبيع على الصّعيد الفلسطيني كانت تتمثّل بإنشاء الجمعيّة العربيّة ـ اليهوديّة

(١) بيان نويهض الحوت. القيادات والمؤسّسات السّياسيّة في فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٨، مؤسّسة الدّراسات الفلسطينيّة، ص ٤١.

(٢) ن م، ص ١٠٢

عام ١٩٢٠ على يد اليهودي الرّوسي كلفرسكي، وكان أبرز وجوهها حسن شكري رئيس بلدية حيفا. وقد انهارت بسرعة[٣]. ثمّ النّادي الوطني الإسلامي عام ١٩٢١، والحزب الوطني العربي (١٩٢٣) وكان إنشاؤه أوّل إجراء عملي ينجح فيه البريطانيّون والصّهاينة في شقّ الحركة الوطنيّة.

على الصّعيد العربي، كانت صحيفة «المقطّم» المصريّة أوّل من روّج للفكرة الصّهيونيّة الاستيطانيّة منذ عام ١٨٩٨، تلتها جريدة «الأهرام» وصحيفتا «النّفير» و«لسان الحال» البيروتيّتان. وفي فلسطين أنشأ راغب النشاشيبي جريدة «لسان العرب» عام ١٩٢١ وسلّمها للبناني إبراهيم سليم النّجار فدافعت عن السّياسة الإنجليزيّة وأيّدت الصّهاينة.

لم تكن هذه الثّغرات في الحركة السياسيّة الفلسطينيّة ذات شأن يذكر. ولكن ترتيب الأولويّات في النّضال ضدّ الاحتلال الصّهيوني الإنجليزي أو الحركة الصّهيونيّة ومحاولة الفصل بينهما سبّب اضطراباً ملحوظاً في أداء الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة عكس آثاره على الأحزاب السّياسيّة الّتي قسّمت الشّارع الفلسطيني وجعلت لهذا الانقسام تقاليد ستمتدّ إلى أيّامنا هذه، كما كان باكورة للنظريّة السّياسيّة الرّسميّة الّتي عملت على فصل التّمظهر الصّهيوني عن المركز الاستعماري المتمثّل في أمريكا فيما بعد.

أمّا ظاهرة تأييد بعض الصّحف العربيّة للحركة الصّهيونيّة فكانت المنشأ الّذي ترعرعت فيه أفكار التّطبيع مع الصّهاينة لدى بعض النّخبة الثّقافيّة والسّياسيّة العربيّة في أوقات لاحقة، وليس من المفارقة أن تتركّز الفئة المنادية بالتّطبيع في مصر ولبنان بعد أن انحسرت قوّة الحركة القوميّة العربيّة فيما عبّرت عنه اتفاقية كامب ديفيد واتفاق ١٧ أيار وما عبّر عنه ذلك من توجّهات سياسيّة وثقافيّة للأطراف الّتي دافعت عنهما.

الاندماج غير مطلوب.. المطلوب هو التّبعية

بعد نكبة ١٩٤٨ ظلّ التيّار الغالب من المثقّفين الفلسطينيّين ـ شأنهم شأن الحالة السّياسيّة السّائدة عربيّاً ـ يرفض الاعتراف بالكيان الصّهيوني. وقد جزّأ الاحتلال الشّعب الفلسطيني إلى توزّعات ديمغرافيّة أربعة: الباقون تحت الاحتلال، وأهل الضفّة الغربيّة وسكّان قطاع غزّة ثمّ فلسطينيّو الشّتات.

وتعتبر تجربة أولئك الّذين بقوا في الشّطر المحتلّ عام ١٩٤٨ حالة مختبريّة مناسبة لتأمّل سياسة التّطبيع الّتي فرضها الصّهاينة عليهم، والاسترشاد بها في محاولة فهم تقبّل الذّهنيّة العربيّة للتعايش مع الصهاينة. فقد خرج أولئك الفلسطينيُّون من الحرب وهم لا يكادون يصدّقون أنّهم بقوا على أرضهم، وأنّ (الوحوش) الصّهاينة تركوهم أحياء داخل ذلك السّجن الكبير المعزول عن محيطه والمحاصر من جميع الحدود الّذي سمّوه «دولة إسرائيل» وإن ظلّ يعني بالنّسبة لأهله الوطن، وهو ما يجعلهم عرضة للإبادة الجماعيّة بدون ضجيج إن هم أبدوا مقاومة وعنفاً ضدّ الكيان؛ ولكن مقاومتهم على مدى السّنين الّتي تلت ضدّ عمليّات اغتصاب أرضهم المستمرّة والمنهجيّة كانت تميل إلى الاحتجاج والشّكوى، ولا يذكر أنّهم لجأوا إلى وسائل المقاومة اللاّعنفيّة الّتي كان بإمكانهم اجتراحها. وقد لعبت النّخبة الباقية بينهم دوراً تطبيعيّاً مع الواقع الجديد أفرز شكل العلاقة الجديدة مع الكيان. وكانت هذه النّخبة بمعظمها تنتمي إلى الشيوعيّين الّذين مارسوا دوراً متقدّماً في التّشبّث بالبقاء على أرض الوطن، ولكنّهم تميّزوا منذ زمن مضى بموافقتهم على إنشاء دولة لليهود (قرار التّقسيم) والقول بضرورة النّضال إلى جانب الطّبقة العاملة والكادحين اليهود ضدّ أرباب العمل والحكّام الصّهاينة. فالنّخبة الثّقافيّة الشّيوعيّة هي الّتي صاغت خطاباً ثقافيّاً وسياسيّاً ينظر للتطبيع مع اليهود (ويمكن أن يتحوّل الأمر إلى تطبيع مع الصّهاينة بحكم صعوبة الفصل على المستوى السّياسي)، وغزلت الحجج النّظريّة لاندماج الفلسطينيّين في دولة «إسرائيل». رغم أنّ قادة الكيان الجديد كانوا يفتقدون سياسة واضحة في سنوات إنشاء الكيان الأولى تجاه «المسألة العربيّة» ونظروا إليها من الزّاوية الأمنيّة والعسكريّة فحسب.. وساعدهم على ذلك أوضاع الفوضى السّائدة وحالة الموات السّياسيّة للأقليّة «العربيّة في إسرائيل». فمنهم من كان يرى التخلّص منهم. ومنهم من كان يميل إلى إدماجهم «قوميّاً» بـ «إضفاء الطّابع العبري» على نظام التّعليم العربي. ولكن بن غرويون حسم الأمر بوجوب أن تكون الأسبقيّة للجانب الأمني على كافّة الاعتبارات الأخرى، وضرورة تضييق الفجوة الثّقافيّة والتّعليميّة بين العرب واليهود. وكان أكثر الاقتراحات إثارة ذلك الّذي قدّمه «أمنون لين» بتدريب (العرب داخل إسرائيل) ليكونوا «الأداة الملائمة» من أجل «تحرير الشّعوب العربيّة من حكّامها الرجعيّين»[٥]. ورغم أنّ الشيوعيّين يؤكّدون على دورهم الأوحد في الحفاظ على الشخصيّة الفلسطينيّة تحت الاحتلال الأوّل، إلاّ أنّ «التّأريخ» لا يذكر لهم إنجازاً هامّاً على هذا الصّعيد قبل مطلع السّتينات، أي بعد تشكّل حركة الأرض وتنامي الشّعور بالانتماء

(٣) ن.م، ص ١٨٣.

(٤) صحافة عربيّة في خدمة الحركة الصّهيونيّة: يوسف حدّاد، قضايا عربيّة، تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٨٠.

(٥) الفلسطينيّون عبر الخطّ الأحضر، الكسندر شولتس وآخرون، كتاب الفكر، ص ٦٥.

القومي بعد صعود عبد النّاصر، ولكن حركة الأرض استبعدت عن مسرح الحياة السياسيّة عام ١٩٦٥ وبان واضحاً أنّ الدّمج الثّقافي للفلسطينيّين غير ممكن وغير ضروري. وقد قال موشي ديان حينها «إنّ ما يمكن للعرب أن يحبّوه في إسرائيل ليس هو الصهيونيّة ولا بياليك (الشّاعر العبري) وإنّما حقيقة أنّ قراهم بها كهرباء».

وفي هذه الفترة قدّم مثقّفو الصّمود أبرز إبداعاتهم، وبرز دور الحزب الشّيوعي كسند سياسي للوجود الفلسطيني، بعد أن استطاع الفلسطينيُّون العرب في الحزب أن يحرزوا لأنفسهم حقّ التّعبير عن روح الانتماء القومي. ولكن علينا ألاّ ننسى أنّ الانتماء الإيديولوجي للمثقّف الفلسطيني في الحزب الشّيوعي كان انتماءً ملتبساً. وكان التّعارض بين قواعد اللّعبة السّياسيّة وبين قوّة الانتماء إلى الأرض والشّعب والهويّة مدعاة لازدواجيّة ذات أثر مرهق على الرّوح. ولم تكن قواعد الانضباط الحزبي تسمح بالاطّلاع على صورة حقيقيّة لتلك الحالة. إلاّ أنّ حالات التمرّد برزت أثناء تشكيل حركة الأرض، وفي حالة «داوود تركي» وفي الحالة الّتي عبّر عنها محمود درويش بخروجه من الحزب والوطن. على أيّة حال فإنّ سياسة القبول بالأمر الواقع والتّطبيع مع اليهود كانت غير مجدية. ومازال الفلسطينيُّون في الجزء المحتلّ عام ١٩٤٨ يعانون من عقدة الهويّة ومحدّدات الانتماء، ويشعرون باستلاب يومي إزاء شخصيّتهم الفلسطينيّة والتّعبير الحقوقي عن وجودهم على وطنهم يجرحهم بصلافة العبارة المتمثّلة في الوصف الرّسمي لهم بـ «الأقليّة العربيّة في إسرائيل».

وإذا كانت التّغطية الإعلاميّة الثّقافيّة في العواصم العربيّة وفي صحافة «المقاومة الفلسطينيّة» قد شملت أدب المقاومة فقط، وهو ما أعطى انطباعاً عامّاً بأنّ الفلسطينيّين تحت الاحتلال قد أنتجوا فقط أدباً مقاوماً يرفض الكيان الصّهيوني ويؤكّد على الهويّة والانتماء، وحصر بذلك الوجود الأدبي والثّقافي في بضعة أسماء من محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما، فالحقيقة أنّ أعداداً تفوق هؤلاء قد انصرفت إلى إنتاج أدبي يتناول المشاكل والهموم الفرديّة الوجوديّة والوجدانيّة، متخطّيةً حاجز التّصادم مع «الدّولة» أو التوزّع بين الانتماء السّياسي للكيان والانتماء الثّقافي للهويّة. كان ذاك هو شأن شعراء مثل ميشيل حدّاد وجمال قعوار وحبيب شويري وغيرهم، وشأن روائيّين وقصّاصين أمثال أحمد سليم درويش وسليم خوري ومحمود عبّاسي وغيرهم، وشأن مسرحيّين ـ وهؤلاء تميّز إنتاجهم (المهادن) بالغزارة نسبياً بسبب حاجة المسرح إلى ترخيص حكومي ـ ومنهم محمود عبّاسي وسليم خوري وإدمون إلياس شحادة. بل إنّ بعض الأدباء الفلسطينيّين كتبوا قصائد يحيُّون فيها يوم «الاستقلال» ويمدحون الباب العالي للحاكم الصّهيوني!.

الفدائي أكل المثقّف

بعد الاحتلال الثّاني ١٩٦٧، انخرط معظم المثقّفين الفلسطينيّين في أجهزة ومؤسّسات التنظيمات المقاتلة وأصبحوا (صوتاً للبندقيّة). وقد أدّت العلاقة المرضيّة بين المثقّف (الفدائي) والسّياسي (الفدائي) إلى تشويه الفكر والثّقافة، حيث اضطّر المثقّف إلى (سوء استخدام) أدواته المعرفيّة من أجل تسويغ الشّعارات السّياسيّة، ودخل في صراعات الأحزاب والتّنظيمات، وهي صراعات فيها بعض البهلوانيّة. كما غاب دور المثقّف الصّدامي والإصلاحي الاجتماعي والنّاقد من أجل شعارات «الوحدة على أرض الصّراع» و«ديمقراطيّة البنادق» و«كلّ الجهود لتحرير فلسطين» و«الأقلام والبنادق ضدّ العدو». وهذا أحد الأسباب الّتي جعلت الذّهنيّة تغلب على الإبداع الثّقافي، وجعلت الشّعر يتقدّم على الرّواية والأدب على المعرفة.

والطّريف أنّ المثقّفين عقدوا اتفاقاً غير معلن مع القيادات السّياسيّة يقضي بمهاجمة أيّ مشروع سياسي قد لا ترضى عنه القيادة السّياسيّة دون مناقشته، والدّفاع عن المشروع نفسه إذا طرح من قبل هذه القيادات، وهو ما أعطى الجماهير شعوراً بالعبث السياسي تجاه المؤسّستين الثّقافيّة والسّياسيّة الفلسطينيّتين. والمتتبّع للسجالات الثّقافيّة الدّائرة على صفحات المجلاّت الفلسطينيّة منذ عام ١٩٦٥ حتّى اليوم يرى العجيب من الانقلاب على الذّات لدى الكاتب الواحد، والهذر السّياسي والكليشيهات الأدبيّة الجاهزة في إنتاج ركام من الفنون الأدبيّة. وقد توّج المؤتمر الثّالث لاتحاد الكتّاب والصّحفيّين الفلسطينيّين هذه الكوميديا السّوداء، إذ تعطّلت أعمال المؤتمر ثلاثة أيّام كاملة بسبب مادة اقترحها المثقّفون ولم تعجب القيادة، إلى أن عاد المؤتمرون «صاغرين» واستجابوا لأوامر القيادة. وفي نهاية المؤتمر فرض قادة العصائل على الكتّاب القائمة الوحيدة الّتي سيصوّتون لها في اقتراع مكشوف. وخضع المثقّفون لهيمنة شبه عسكريّة من قبل التّنظيمات الّتي عمّمت «الالتزام التّنظيمي» على عابري السّبيل ولم تستطع أن تفرضه على قياداتها وكوادرها المتقدّمة.

وامتدّ التّخريب الثّقافي ليشمل الأرض المحتلّة، وكمثال على ذلك نذكر الانقلاب الّذي قيام به علي الخليلي وزياد أبو زياد وحنّا السّنيورة في جريدة الفجر لصالح عرفات، ودعم جاك خزمو في إصدار «البيادر السّياسي» الّتي روّجت للتطبيع بعد أن خرّب «البيادر» الأدبيّة والانقسام في اتحاد كتّاب الدّاخل.. إلخ.

ولكن الجريمة الّتي ارتكبها المثقّف الفلسطيني هي مشاركته في صناعة الحالة الانعزاليّة الفلسطينيّة، والتّرويج لشعار «يا وحدنا» و«خيانة الشّقيق والصّديق» وتهويل المأساة وتحويلها إلى حالة ميلودراميّة بدل المعالجة الصّادقة ورواية الأحداث كما هي فما كان

لاتفاق (غزّة ـ أريحا) أن يمرّ لولا وجود القطريّة الضيّقة والوطنيّة الانعزاليّة لدى الشّعب الفلسطيني في الدّاخل وهي حالة جديدة على الفلسطينيّين ساهمت في صناعتها الأحداث ولكن السّاسة والمثقّفين هم الّذين نشروها بشكل دعائي ونظّروا لها.

ولم تعبّر الأنتلجنسيا الفلسطينيّة عن الانتفاضة، لأنّ تركيبتها المعرفيّة وانتماءاتها كان خارج المسار الّذي تتجه الانتفاضة ضمنه، وهو ما جعل المثقّفين يتعاملون مع الانتفاضة بإدويّة ورغبة في التّمثّل لا تجد لها لغة لصيقة بالواقع الّذي أفرز الانتفاضة وأثّرت فيه.

هذا الوضع سهّل على أصحاب صفقة (غزّة ـ أريحا) حشد جوقة من الكتّاب ليمتدحوا الإنجاز الوطني العظيم ويبشّروا بالخيرات الّتي يحملها سيله العرم، أو ليتحدّثوا عنه بلغة ضبابيّة تدفع النّاس إلى اليأس والقبول بالأمر الواقع.

وقد استعدّ الإعلاميُّون مبكّراً لتغيير مصطلحاتهم السّياسيّة (القديمة) لمواكبة العصر الجديد. فقد قال علي الخليلي الشّاعر والباحث التّراثي ومدير تحرير جريدة الفجر في أيلول (سبتمبر) ١٩٩١: «إنّ الصّحفي الفلسطيني بحاجة إلى ثورة في المصطلحات.. لقد أصبحت أتردّد في استخدام مصطلحات «الثّورة والعدالة والحقوق» وأفضّل استعمال تعابير مثل «العلاقات المتبادلة» و«المصالح المشتركة» و«مذكّرات التّفاهم»»[٦].

وكرّس إميل حبيبي مقالاته لإيضاح الجهل الفاضح(!) الّذي يقع فيه العرب في فهمهم للعدو الّذي تجب «أنسنته» و«التّبادل الثّقافي الخصب معه»، ولتسفيه فكرة القوميّة العربيّة، وللدعوة إلى الانتماء للعالميّة.. وهي مقالات تنشرها إحدى أوسع الصّحف العربيّة انتشاراً، وصحف كثيرة أخرى في العالم العربي، ويُدعى إلى النّدوات الثّقافيّة العربيّة ليشرح (لنا) الجوانب المشرقة للتعامل مع الثّقافة اليهوديّة في فلسطين.

ورغم أنّ الرّفض والاستنكار والإعراب عن الغضب الشّديد هو جوهر الموقف العامّ للمثقّفين العرب إزاء الاتفاق، فإنّ وجود البعض الّذي يرى فيه إنجازاً إيجابياً يهدّد بتحقيق اختراق ثقافي للصّهاينة على الجبهة الثّقافيّة(؟) العربيّة. وسنحاول أن نعرض بشكل بانورامي لآراء عيّنة من مؤيّدي الاتفاق وأولئك الّذين لا يرون مفرّاً من التّعامل حسب معطياته بين المثقّفين العرب كما نشرتها صحيفتا «الشّرق الأوسط اللندنيّة» و«السّفير البيروتيّة» في فترات متفاوتة:

● خالد الكدّ (سوداني): سوف يتغيّر كلّ تراثنا الأدبي والثّقافي والشّعري والملاحم ونتحوّل إلى السّلام. وهذا شيء جميل. لست متشائماً سننتظر...

● خالد عبد اللّطيف (كويتي): الفلسطينيُّون أحرار. نحن نادمون على تضحياتنا من أجلهم.

● اسحق الشّيخ يعقوب (سعودي): لا يمكن انتزاع اتفاق أفضل منه. أنا يائس.

● محمّد الهرادي (مغربي): ربح معنوي وسياسي. إنّ ربح المعركة هو القدرة على العيش سويّة (مع العدو) باختيارنا الحرّ، رغم أنّه أمر مهول أن يعيش المرء متجرّداً من عدوّه.

● نيڤين مسعد (مصر): مدخل براغماتي لإنعاش العروبة اقتصادياً، ومدخل ثقافي لتجديدها حضارياً.

● هشام شرابي (فلسطيني): لا توجد نتائج دراماتيكيّة. سيكون هناك انعزال ثقافي لكلّ ما هو «إسرائيلي»، وربّما تباعد (الانعزال) أكثر ممّا هو عليه الحال. مشاكلنا أسبابها داخليّة. وسنبقى في نفس المأزق، وهو موضوع الأصوليّة الدّينيّة وقضيّة المرأة وصيغة للتعامل الحضاري مع الغرب.

● إبراهيم الخطيب (مغربي): أفضل سبيل لحلّ المشاكل تدريجيّاً مكسب للفلسطينيّين. والاتفاق دفاع عن الوجود الحضاري الفلسطيني الفاعل.

● سامي خشبة (مصري): يمكن أن يؤدّي إلى انفتاح على المستوى الحضاري من أجل إثراء الثّقافة الإنسانيّة، وإلى عودة اليهودي إلى مساره (الحضاري المشترك مع العرب) ونبذ الصّهيونيّة كفكر غربي غريب على اليهود.. ونحن قادرون على امتصاص الغزو ثقافيّاً.

● سعد البازعي (سعودي): يعبّر عن توجّه واقعي، لا خوف على مصير الأمّة من الإسرائيليّين. المصائب فينا وليست في الصّهيونيّة.

● د. علي شلش (مصري توفّي أخيراً): خطوة على طريق طويل نحو السّلام. السّلام اختيار صعب لأنّه يعني البناء والتّعمير، وعلينا العمل من أجله، لأنّه هو ما اتفقنا عليه، ولا نملك البديل.

هذه الاستشهادات تؤكّد أنّ الاتفاق لم يكن من صنع حالة سياسيّة تآمريّة خارجة عن السّياق الثّقافي العام الّذي يسير فيه العالم العربي. وإنّما هو نتيجة لوجود تيّار فكري فاعل على السّاحة العربيّة. اختار اللّجوء إلى الحلّ الغربي بكلّ ما يحمله هذا الحلّ من تبعات وتحدّيات لا تشمل فلسطين فقط وإنّما العالم العربي بأسره.

---

(٦) حريدة الحياه ٩١/٦/٢٥

والمسوغات الّتي استخدمها هذا التيّار ليست جديدة ولا بدعاً بين العرب، وليست اكتشافاً توصّل إليه المثقّفون بعد معاناة طويلة وسلسلة من الحروب والهزائم. وإنّما كانت لها سابقاتها منذ بدء المشروع الصّهيوني. وقد انتشرت بشكل خاصّ بين دعاة الإقليميّة والطّائفيّة وتيّار الانعزال والالتحاق بركب الثّقافة الغربيّة والقطيعة مع الثّقافة العربيّة الإسلاميّة بحجّة أنّها ثقافة (التخلّف)، ونذكر في هذا السّياق أسماء أحمد لطفي السيّد من مصر وسعيد عقل ويوسف الخال من لبنان. وشيوع هذا النّمط من التّفكير كان سبباً ـ ولو ضئيلاً ـ في الهزيمة.

ومثقّفون يرفضون الاتفاق والاستسلام

وعلى الطّرف الآخر من هذه الأفكار المنساقة وراء تأييد الأمّة لمشيئة أعدائها التّاريخيّين، لابدّ من ملاحظة آراء مثقّفين يحاربون التّطبيع وينوّهون بأخطاره. وفيما يلي سرد لآراء عيّنة من المثقّفين مأخوذة من نفس المصدرين السّابقين (الشّرق الأوسط والسّفير).

● إدوارد سعيد (فلسطيني): إن اختزال صراع كبير من الرّؤى والقيم إلى مجرّد خلاف بسيط غير ذي ضجيج وغير ذي مغزى ويمكن تسويته من خلال أمر يدعى بالحكم الذّاتي لهو باعتقادي مهزلة.

● محمود أمين العالم (مصري): الثّقافة العربيّة المناضلة ستواصل نضالها، وسيزداد هذا النّضال عمقاً وشدّة.

● رياض الرّيّس (سوري): يجب التصدّي لمن يكتب العبريّة بالعربيّة.

● هاني الحسن (فلسطيني): محاولة تدمير الثّقافة العربيّة وتزوير التّاريخ والمفاهيم التّراثيّة.

● رجاء أبو غزالة (الأردن): سيجري تعديل المناهج التربويّة، وجعل «السّاتلايت» رخيصاً بالنّسبة لعامّة الشّعب ليستقبل محطّات أجنبيّة تؤثّر في الثّقافة.. يجب التصدّي باستراتيجيّات قابلة للتحقّق.

● منصور الأطرش (سوريا): سيؤدّي إلى تغيير المناهج التربويّة والاستعمالات اللّفظيّة الّتي درجنا عليها وتفتيت الأمّة العربيّة وتفتت الحياة الاجتماعيّة والمدنيّة في كلّ دولة عربيّة على حدة. والردّ يكون بتحصين السّياسة التربويّة وبالانتباه لمسألة الاستهلاك السّلعي.

● صفيّة صفوت (السودان): أسوأ الأذواق وأسوأ البرامج الإذاعية والتّلفزيونيّة والأغاني والموسيقى والفنون والثّقافات...

● وهيب الشّاعر (الأردن): سيركّز الصّهاينة على اقتحامنا بالإفساد الأخلاقي والمالي والتّفتيت. سيزداد العبث في المجتمع العربي.

● محسنة توفيق (مصر): أخطار قادمة بدأ تنفيذها من مشاريع زراعيّة مشتركة مع مصر (بدأت في عفله عن الشّعب)، وتغيّرت المناهج... (سابوا سينا واحتلّوا مصر).. لابدّ من المقاومة.

● فدوى عبد الرّحمن (السّودان): ازدياد التّغريب والتّعيّة.

● د. علي المحافظة (الأردن): إسرائيل ستكون هي المصدر الوحيد للتكنولوجيا (وكيلة عن الغرب في المنطقة) وستعزّز الاختلافات الثّقافيّة في المنطقة.

● ناجي علّوش (فلسطيني): قوى النّظام العربي الرّسمي الّذي وقّع الاتفاق ستفرض سياسات صهيونيّة في ميدان الثّقافة والسّياسة.. وستقوم عصابات التّطبيع بـ: (١) إغراق الوطن العربي بالصّراعات الدّمويّة المختلفة، (٢) إخضاع الوطن العربي للثّقافة الاستهلاكيّة الإمبرياليّة الصّهيونيّة إخضاعاً كاملاً، (٣) تمكين العصابات من السّيطرة على السّلطة ضمن إطار فسيفساءات متنازعة.

● منح الصّلح (لبنان): الثّقافة العربيّة هي أقوى ما في العرب وأضعف ما فيهم، وستحاول إسرائيل أن تجعل هذه الثّقافة مصدر ضعف فقط عن طريق تهجينها وتشويهها وإلغاء أصالتها.

توقّعات بصدد الأساليب الّتي سيلجأ إليها الصّهاينة لإنجاح غايات الاتفاق

(١) تكثيف عقد لقاءات مشتركة بين المثقّفين اليهود والفلسطينيّين خاصّة والعرب بشكل عامّ استكمالاً لما حاولوه مع المثقّفين المصريّين بعد كامب ديفيد، لتحسين صورة الكيان وترسيخ التّطبيع. وقد عقدت لقاءات مشتركة حتّى الآن في القدس وفي فلسطين المحتلّة عام ١٩٤٨، وكان آخر لقاء من هذا النّوع الّذي عقد في ٥/١٠/٩٣ على ذرى جرزيم في نابلس وكان (عبارة عن نزهة مختلطة يهوديّة عربيّة تحت شعار نقويّة السّلام وإسقاط الحاجز النّفسي).

(٢) الإسهام في نشر صحف ومجلّات وطباعة كتب باللّغة العربيّة تعيد النّظر في الخطاب الثّقافي العربي وتستفيد من تراكم خبرات

الباحثين اليهود في تغطية أدقّ قضايا العرب والمسلمين وتركّز على إشاعة روح الاستسلام والدّونيّة لدى العرب في بثّ دعائي إعلامي مبرمج يبرز الجوانب السّلبيّة للشخصيّة والتّاريخ والثّقافة العربيّة ويبرز التفوّق اليهودي في كل مناحي الحياة.

(٣) إضعاف الرّوح العسكريّة لدى العرب ـ وهي ضعيفة في راهنها ـ والدّعوة إلى إلغاء التّدريب العسكري الإلزامي، (وبالنسبة للفلسطيني فإنهم سيفتقدون إلى هذا النّشاط الحيوي الّذي غطّته إلى حدّ ما التّنظيمات الفلسطينيّة ولن تكون الشّرطة الفلسطينيّة بديلاً لتدريب عناصر فلسطينيّة مقاتلة(!)).

(٤) المطالبة بتعديل الكتب والمناهج المدرسيّة في منطقة الحكم الذّاتي، وفي الدّول الّتي ستعقد اتفاقات سلام مع الصّهاينة لتناسب المرحلة الجديدة، وهذا ما عُمِل به في مصر منذ آب ١٩٧٩.

(٥) النّشاط الحثيث عبر الجامعات ومراكز البحث العلمي والإسهام في عقد جلسات حوار وإنشاء معاهد بحث مشتركة تحت ذريعة التّبادل الفكري والثّقافي والانفتاح.

(٦) تشجيع انكفاء الأدب العربي لمناقشة قضايا اجتماعيّة وفرديّة معزولة عن ارتباط مسألة النّضال الاجتماعي والسّياسي بالتّبعيّة للغرب والاستعمار ومواجهة الصّهيونيّة، وطغيان التّيارات الشّكلانيّة على الجوهر الإبداعي، وهو أمر عانت منه الثّقافة العربيّة بعد كلّ هزيمة تعرّضت لها.

مقترحات لمعالجة الآثار المدمّرة للاتفاق

(١) التّركيز على العمليّة التّربويّة ودورها في صياغة ذهنيّة وتفكير الإنسان وتهيئة كوادر قادرة على التحدّي الحضاري، وربّما يكون انتزاع العمليّة التّعليميّة من الجهاز الرّسمي عبر تشجيع إنشاء مدارس أهليّة واعتماد أساليب التربية الجماهيريّة أداءً مناسباً في مواجهة استحواذ النّظام الرّسمي المحتمل أمام عمليّة تشويه التّربية العربيّة.

(٢) محاولة توحيد المناهج التّعليميّة الخاصّة بالقضيّة الفلسطينيّة والتّاريخ العربي في مواجهة التّعليم غير المتجانس الّذي يتعرّض له الفلسطينيّون بسبب تشتّتهم الدّيمغرافي.

(٣) تحرير الصّحافة ووسائل الإعلام من الارتهان للدولة والمؤسّسات الاقتصاديّة الكبرى باللّجوء إلى الطّباعة الشّعبيّة الرّخيصة وأدوات الإعلام البديل، ومحاولة تحويل المؤسّسات الإعلاميّة ومراكز البحوث والدّراسات إلى مؤسّسات وقفيّة وهي تجربة كانت سائدة ـ بشكلٍ ما ـ في العالم الإسلامي ومتّبعة حالياً في العالم الغربي.

(٤) تشجيع المثقّفين والمبدعين العرب على القيام بدورهم في ترسيخ الهويّة الحضاريّة ومقوّمات النّهوض عبر الدّراسات والأبحاث الجادّة، وتشجيع أساليب المسرح الشّعبي المقاوم لسهولة وصوله إلى النّاس، والشّعر والرّواية والقصّة والإنتاج السّينمائي الّذي يحتفظ بالجوهر النّضالي ويساهم في رفع الرّوح المعنويّة للجماهير.

(٥) استخدام لغة مفهومة وعقلانيّة في الخطاب الثّقافي.

(٦) على الحركة الوطنيّة العلمانيّة ومثقّفيها رفض محاولة تسخيرها كحليف أو أداة لأجهزة النّظام الرّسمي في حربه ضدّ ما يسمّيه بالأصوليّة الإسلاميّة، والتّركيز على التقاء التّيارات الفكريّة المختلفة على أرضيّة مشتركة في مواجهة محاولات التّفتيت والتّذويب الحضاري، وتحويل العالم العربي إلى فسيفساءات متصارعة، وهي المعركة الّتي أعلن موقّعو الاتفاق صراحة أنّها ستكون المعركة المفروضة على العالم العربي والإسلامي في المدى المنظور عبر نقل ساحة الصّراع من المواجهة مع الصّهيونيّة إلى المواجهات الطائفيّة والدّاخليّة تحت حجّة «محاربة الأصوليّة».

وأخيراً فإنّ على المثقّفين أن يحسموا ولاءاتهم وانتماءاتهم إلى صفوف الجماهير، ويتحدّثوا بلغتها ويعبّروا عن همومها بعد أن قطعوا شوطاً طويلاً في الانتماء إلى المؤسّسة الرّسميّة، ومارسوا دوراً تضليليّاً وخادعاً مفاده أنّهم يتحدّثون باسم الجماهير وإليها، في الوقت الّذي كانوا يشتغلون فيه لصالح أنظمة غريبة فكريّاً ومعزولة عن انتماءات الأمّة ومصالحها.

ويجب ألّا يغيب عن بالنا أنّ الشّعوب لا تهزم إلّا إذا انهزمت ثقافاتها واستقرّت الهزيمة في أعماقها. وما من شعب يتقبّل الهزيمة إلّا إذا روّج مثقّفوه وإعلاميوه للهزيمة وأصبح المواطن يسمع الهزيمة ويقرأها ويحسّ بها في الأغنية والموسيقى والقصيدة والرّواية والإذاعة...

ومازال المثقّفون هم الجدار الأخير الّذي يستند إليه المحارب المهزوم.

مداخلة د. أحمد البرقاوي

الثّقافة العربيّة والصّراع القومي مع الحركة اليهوديّة ـ الصّهيونيّة

«ملاحظات منهجيّة»

يكثر الحديث الآن ـ كما كان الحال أثناء توقيع اتفاقيات كامب ديفيد ـ عن المخاطر الّتي تحدق بالثّقافة العربيّة جرّاء التّوقيع على إعلان المبادئ بين منظّمة التّحرير الفلسطينيّة وحكومة الاستعمار الاستيطاني الصّهيوني ـ اليهوي في فلسطين.

وإنّ معظم الّذين تطرّقوا لهذا الموضوع ظلّوا يسبحون في مياهٍ من الكلمات الّتي لا تقول شيئاً عن واقع الحال الّذي يبتغون فضّه.

إذاً سرعان ما تواجه القارئ لأدب مواجهة «الغزو الثّقافي الصّهيوني» مصطلحات من قبيل الحفاظ على الهويّة، الحفاظ على قيمنا وتقاليدنا، الحفاظ على تاريخنا. وهذا كلّه من قبيل الردّ على الهجوم على الهويّة والقيم والتّاريخ الّذي يفترض أن الصّهيونيّة تسعى إما إلى تشويه هذا كلّه أو طمسه. ولعمري أن طريقة في التّناول كهذه بعيدة كلّ البعد عن مطلب الفهم كعنصر أساسي من عناصر التّفسير. بعيدة عن فهم الثّقافة ذاتها من حيث تحديدها الأعمق والأعمّ كواقع موضوعي ومن حيث آليّة تغيّرها البطيء جدّاً بالقياس إلى التّغيرات الحاصلة في العلاقات السّياسيّة أو في عالم التّقنيّة، ومن حيث جانبها الإيديولوجي الإرادي الّذي يقيم علاقة معقّدة جدّاً بها كبنية.

لقد سأل الأخ عبد القادر صالح سؤالاً مهمّاً حين كتب يقول: كيف يمكن لاتفاق سياسي ضئيل يشمل مدينتين «غزّة وأريحا» أن يكون مهدّداً للثّقافة العربيّة الّتي تتلبّس أكثر من ١٥٠ مليون عربي ينتشرون على مساحة وقدرها ١٢ مليون كلم٢؟

وإذا كان السّؤال قد صيغ ووضع في صورة استنكاريّة ساخرة، فإنّ الإجابة عليه تتطلّب موقفاً حدّياً يحقّق مطلب العلم. وباستطاعتنا أن نطرح السّؤال التالي وهو من وحي سؤال الباحث: لماذا نخشى على الثّقافة العربيّة الّتي هي ثقافة ملايين من البشر وذات تاريخ طويل من ثقافة ضيّقة؟ لماذ لا يكون العكس هو الصّحيح، أي أليس من الأولى أن تخشى الثّقافة اليهوديّة ـ الصّهيونيّة من اختراق الثّقافة العربيّة؟

إنّ الباحث ـ كما قرأت ـ لم يجب على أيٍّ من السّؤالين، ولهذا عوّل على عرض تاريخي نقدي في بعض جوانبه لأشكال المواجهة الإيديولوجيّة ثمّ البحث عن سبل مواجهة ثقافيّة ـ إيديولوجيّة للاتفاق المذكور ردّاً على أولئك الّذين وجدوا عناصر إيجابيّة فيه.

إنّ ذلك لا يعود إلى نقص في كفاءة الباحث، بل إلى تعقيد الإشكاليّة الّتي وضعها نصب عينه.

فإذا كان الحديث يدور حول تهديد الثّقافة العربيّة من حيث هي لغة وتاريخ ودين وعادات أتراح وأفراح وجملة علاقات تكوّن نمط الحياة وتبني نفسيّة، فإنّ المناقشة يجب أن تتخذ زاوية أخرى أكثر اتّساعاً من علاقات مباشرة بين الاتفاق وهذه البنية الثّقافيّة.

أمّا إذا دار الحديث عن العلاقة بين الاتفاق والإيديولوجيا كعنصر من عناصر الثّقافة، فإنّ الأمر يحتاج إلى نظرة فاحصة لا للأسباب الإيديولوجيّة الّتي جعلت اتفاقاً كهذا يرى النّور فحسب وإنّما إلى الشّروط الّتي تجعله قابلاً للحياة أيضاً. هنا ننتقل إلى مستوى البحث في الوعي القابل للتشكّل عبر أجهزة السّلطة الدّعائيّة وقنواتها المتعدّدة ومثقّفيها.

فاختراق الوعي المقاوم الّذي مازال مستمرّاً منذ عقدين من الزّمن لم تكن أدواته الصّهيونيّة والاستعمار الاستيطاني، بل أنظمة قطريّة تابعة لم تترك صعيداً من صعد الثّقافة الروحيّة إلّا واخترقته من الأدب والمسرحيّة والسّينما والمسلسلات مروراً بالفكر وانتهاءً بمعنى الحياة.

ففي عالم يسيطر فيه شيخ النفط التّابع والسّمسار والجاهل والمتأورب والمشعوذ، في عالم يبحث فيه الإنسان المغترب عن عمله ووطنه وأسرته عن لقمة عيش، في عالم كهذا إذن يتراجع فيه مفهوم الوطن والكفاح ويغدو التّفريط بمصالح الأمّة سهل المرور عبر طرح إيديولوجيا الأمر الواقع باسم العقلانيّة والحضارة والدّخول في العصر.

وعندي أنّنا ليس باستطاعتنا أن نواجه هذا الواقع بسرعة وبسهولة إذ إنّ الاستعجال في طرح البدائل الّتي لا تملك أسس تحقّقها أمر لا معنى له. فالحوار الطّويل والفعل الهادئ يمنعنا من أن نكون مبشّرين. فالمهمّ أن نكون فاعلين.

* * *

مداخلة هاني حبيب

ليس من السّهل على الباحث أن يدرس سبل مواجهة المسار الثّقافي لاتفاق غزّة ـ أريحا، ذلك أنّ الاتفاق المذكور، لم ينص صراحة في متنه أو في ملاحقه على مثل هذا الأمر، إلاّ أنّ هذا ليس مجال الصّعوبة الوحيد في بحث كهذا، ذلك أنّ المسار الثّقافي واسع المعاني وشامل لمجالات أخرى ليس أقلّها الجوانب النفسيّة والاجتماعيّة، الأمر الّذي يستوجب من أيّ باحث للمسار الثّقافي للاتفاق، وكذلك سل مواجهته، دراسة واسعة وشاملة لكي يمكن الإحاطة، ولو نسبياً، بالمخاطر الجوهريّة الّتي ينطوي عليها هذا الاتفاق.

الزّميل الباحث عبد القادر صالح، الّذي جهد واجتهد، ونقّب واسترجع تاريخ ومنعطفات المسار الثّقافي السّابقة للاتفاق، منذ إعلان الفكرة الصهيونيّة قبل أن تصبح هذه الفكرة حقيقة يوم إعلان الحكومة الإسرائيليّة الأولى عام ١٩٤٨، كتجسيد حيّ لهذه الفكرة، نقول إنّ زميلنا كان محقّاً عندما بدأ بحثه بسؤال وجيه: كيف يمكن لثقافة تمتدّ على مساحة الخارطة العربيّة وعدّة مئات من الملايين أنّ تخشى من تأثير ثقافي عليها؟ والسّؤال سيكون محقّاً أكثر لو أنّ الباحث لم يقتصر على توصيف ثقافتنا العربيّة بمساحة الوطن وعدد سكّانه، ذلك أنّ المساحة والسكّان، على أهمّيّتها، لا يمكن أن تخلقا ثقافة حيّة وقويّة لا تخشى من التهديد، والجوهر ـ كما نعتقد ـ فإنّ المسألة تعود إلى عمق ورسوخ الثّقافة العربيّة عدّة قرون في التّاريخ السّحيق، هذه الثّقافة الّتي لم تنحن للثقافات الوافدة والمستعمرة، رغم أنّها تأثّرت وأثّرت بها، وهنا فإنّ السّؤال يبقى غير دقيق لجهة تجاهل ما تنطوي عليه الثّقافة والحضارة العربيّتان من مصادر قوّة حضاريّة تمتدّ عبر تاريخ سحيق، حملتهما أجيال وأجيال متعاقبة، وهذا ما يجعل من الإجابة على السّؤال أمراً حتميّاً باستحالة تهديد هذه الثّقافة من الثّقافات الأخرى، خاصّة إذا كانت هذه «الثّقافة» المقصودة ثقافة هزيلة قيد التّكوين والتّشكيل، «ثقافة» دون تاريخ ولا أصل ولا هويّة.

ومادام الأمر يتعلّق بالثّقافة والحضارة العربيّتين، فإنّنا نعتقد أنّه كان من المجدي والمفيد، بل من الضّروري، ربط مخاطر هذا الاتفاق على الصّعيد الثّقافي، بمخاطر التّسوية الشّاملة الّتي من المرتقب أن تظلّل المنطقة العربيّة برمّتها، ورغم أنّه يمكن ملاحظة هذه المخاطر بوضوح على ضوء الاتفاق الضّئيل حول غزّة وأريحا، إلاّ أنّ تجاهل المسارات الأخرى، والمخاطر الأكثر جسامة الّتي تنطوي عليها، يجعل من تخصيص هذه المخاطر على اتفاق غزّة ـ أريحا، هروباً من الحديث عن الخطر الأخطر والآتي مع توصّل المسارات الأخرى إلى حلّ، أيّاً كان هذا الحلّ. وبالتالي فإنّ سبل المواجهة، كما حدّدها الباحث في الجزء الأخير من بحثه، لن تعود كافية وحدها وقادرة على مواجهة التّطبيع الشّامل القادم مع السّلام الشّامل.

لقد تطرّق الكاتب إلى عدم نجاح الدّمج الثّقافي بين الكيان الصّهيوني المصطنع، مع شعبنا الفلسطيني في المنطقة المحتلّة عام ١٩٤٨، وهذا صحيح تماماً، إلاّ أنّ عدم نجاح هذا الدّمج لا يعود فقط إلى رفض شعبنا له ومقاومته لمضامينه، بل يعود أساساً إلى الكيان الصّهيوني نفسه، الّذي لا يسعى إلى الدّمج، وهي سياسة صهيونيّة أثنيّة وديمغرافيّة، تبقي الآخر، أي آخر، وخاصّة المحتلّ، تابعاً وليس جزءاً من النسيج الصّهيوني، وهذا جزء من العقيدة الصّهيونيّة ذاتها والنّقاء الصّهيوني الّذي سعت وتسعى له الفكرة الصّهيونيّة، ونحن هنا لا نريد التّقليل من شأن النّضال الوطني الفلسطيني في منطقة ١٩٤٨ بقدر ما نحاول الإحاطة بالفكر الصّهيوني وأهدافه على هذا الصّعيد.

أرّخ الزّميل الباحث، بشكل تسجيلي وتوثيقي لمسارات ثقافيّة مهّدت الطّريق أمام تطبيع العقل العربي عموماً، والفلسطيني خصوصاً لاتفاق غزّة ـ أريحا، والواقع أنّ هذا الجزء من البحث يعتبر الأكثر أهمّية، توثيقيّاً وتسجيليّاً، إلاّ أنّنا لم نلحظ توظيف معطيات هذا التّسجيل لاستشراف المستقبل وبالتالي وضع الخطط الكفيلة بمواجهة استحقاقاته، وهذا الجزء الهامّ الّذي استغرق ثلاثة أرباع الدّراسة، لم يوظّف بالشّكل الضروري عندما أخذ الباحث يضع في نقاط قصيرة محدّدة سبل المواجهة، وبدا وكأنّ الأمر ينفصل بين المعطيات والنّتائج واستشراف المستقبل.

ولا ندري لماذا أصرّ الباحث على وضع جدولة لمثقّفين رافضين للاتفاق، وجدولة أخرى لمثقّفين مؤيّدين له، وأين دلالة هذه الجدولة، وهل هي ضروريّة لرصد مجموعة من الأسماء وتبيان موقفها؟ إنّ الجسم الثّقافي العربي واسع ومديد، وموقف هذا القطاع لا يمكن تبيّنه من خلال مقابلات واستطلاعات قامت بها بعض الصّحف لمجموعة متناثرة من المثقّفين، الأمر الّذي يجعل أيّ دلالة لهذه الجدولة غير دقيقة،

بالإضافة إلى أنّها غير ضروريّة، لاسيّما وأنّ الجسم الثّقافي العربي عموماً، يعتبر ضمير هذه الأمّة وعقلها، وأكّد عبر مسيرة التّاريخ أنّه الأكثر التصاقاً بأهداف الأمّة العظمى والنّبيلة، وأمّة تشكّك بعقلها وضميرها لا يمكنها أن تستمرّ وتستقيم، والأهمّ أنّها لا يمكن أن تتمكّن من أن تواجه وعليها أن تسلّم، وهنا فإنّ موقف بعض المثقّفين المتهاون لا يمكن تعميمه على جسم عريض يمتدّ عبر التّاريخ والجغرافيا... والمستقبل. وظهور تيّار فكري يروّج لفكر الاستسلام لا يمكن أن ينظر إليه بوصفه وصمة تعمّ كلّ هذا الجسد الثّقافي، دون تجاهل دوره المؤثر والخطير، ولكن أيضاً دون اعتباره التيّار النّاظم لمستقبل هذه الأمّة.

ربّما اعتقد الباحث أنّه أجاب على تساؤله المشروع الّذي بدأ به بحثه، لكنّنا لم نجد أيّ إجابة على هذا التّساؤل لا مباشرة، ولا ضمناً، وكنّا نفترض أنّ الإجابة لن تكون بصعوبة البحث، إذا أخذنا بالاعتبار إحدى الحقائق في هذا المجال، ذلك أنّ ميزان القوى الإسرائيلي ـ العربي يميل بشكل كاسح لمصلحة الأولى في كافّة ميادين الصّراع، السّياسي والعسكري والاقتصادي.. إلخ، إلاّ أنّ هذا الميزان يميل، وبدون حدود، لمصلحة الجانب العربي في الجانب الثّقافي والحضاري ـ كما بيّنّا من قبل ـ الأمر الّذي لا يجب أن يجعلنا نخشى ونخاف من غلبة إسرائيل في تأثيراتها على الجانب العربي في هذا المجال، إلاّ أنّ ذلك لا يجب أن يقودنا إلى الاطمئنان، ذلك أنّ إسرائيل الّتي تعلم خسارتها على هذا الجانب، ستبذل كلّ جهد، مستفيدة من إمكاناتها المطلقة في الجوانب الأخرى، لانتزاع هذا الجانب من الطرف الآخر، العربي. من هنا، فإنّنا لا نخاف، لكنّنا يجب أن نظلّ يقظين وحذرين، وعدم الاستهانة بقدرة إسرائيل على توظيف كلّ إمكاناتها ـ وهي هائلة ـ للتأثير في ثقافتنا وحضارتنا في محاولة منها لكسر هذا الشّرخ في ميزان القوى معها.

مجتمع الانتفاضة

د. أحمد الدّيك

دار الآداب